الصورة في لوحات المرأة في شعر تميم بن أبي بن مقبل .

د. عبد الرزاق خليفة محمود الدليمي.

جامعة بغداد / كلية الآداب / قسم اللغة العربية

للمرأة حضور كبير في الشعر العربي، ولا سيما الجاهلي. وقدظهرت في لوحات وصور شتى رسمها لها الشعراء وقد اشاعوا فيها كل صفة يجدون فيها الرشاقة والخفة والجمال وملاذ النفس اذ تشغل في اذهانهم المساحة الواسعة بل تكاد تكون محور اهتماماتهم النفسية ووثباتهم العاطفية (١)

وليس ذلك فحسب، فالمراة لها حضورها الكبير اولاً وقبل كل شئ في حياة العربي ، تشاطره اياها في ظلال الفلوات ومفازات الصحارى جدبها وبردها بوحشها وقساوتها، فهي انيسة في لياليه وايامه جميعاً .

ويمكن ان نتحسس وجوداً كبيرا للمرأة في تلك المقدمات التي لاينى الشاعر الجاهلي عن ذكرها فيها مهما كان غرض القصيدة _ في غالب الاحيان _ .

وابن مقبل شاعر من شعراء الجاهلية المعمرين ادرك الاسلام وامتد به العمر الى سنة اثنتين وسبعين من الهجرة النبوية المباركة (٢). ينتهي نسبه الى عامربن صعصعة (٣) ، تزوج ابن مقبل امرأة ابيه – الدهماء – بعد موته (وكانت العرب تزوج نساء ابائها ... وكان الرجل اذا مات قام اكبر ولده فألقى ثوبه على امرأة ابيه ، فورث نكاحها)(٤) ، لكن مجيء الاسلام فرق بينهما على حد قوله تعالى " ولاتنكحوا مانكح اباؤكم من النساء الاماقد سلف " (٥). وعلى الرغم من تغير حياة المجتمع بسبب نزول اخر الاديان السماوية ، وما جاء به من شرائع غيرت حياة الناس ، الا ان ابن مقبل الذي عاش شطراً كبيراً من حياته في ظل الاسلام كان متأزم النفس في غربة يقاسي ما يقاسي من توجعات بسبب تفريق الاسلام بينه وبين زوجه الدهماء التي ظل يذكرها في شعره ويحن الى الجاهلية ، فيقول :

ومالي لا أبكي الديار واهلها وقد زارها زوار عكٍ وحميرا
وجاء قطا الاجبابِ من كُلَّ جانبٍ فوقع في اعطاننا ثم طيرا(٦)

الى ان يقول :

أَلْهفي على عِزٍّ عزيزٍ وظِهْرَةٍ وظِلِّ شبابٍ كُنْتُ فيه فَأَدبْرا(٧)

وبكاء الجاهلية امر غريب الذكر في الاسلام ، وظاهرة لا نكاد نراها عند غير ابن مقبل من الشعراء المخضرمين ويمكن ردها الى الحياة التي كان يحياها وشعوره بالحرية وانطلاقه من القيود التي لا يحكمه فيها الا الولاء القبلي وغوره الشديد في البادية واعرافها (٨) ، فضلا عن رقة اسلامه واكد ذلك احد كبار النقاد القدامى وهو ابن سلام في قوله عنه انه (كان جافياً في الدين وكان في الاسلام يبكي الجاهلية .....) (٩).

فمادامت حالة الفراق قد عمت حياة ابن مقبل وماعادت الدهماء الاطيف او خيال ومادام ذكر المرأة يعني التغزل والحنين الى ايام الشباب ، لذا كان ابن مقبل ينطلق من هذة المنطلق ليظهر تجربته الشعرية في نصوص كثيرة يسوق فيها لوحات المرأة التي تحمل الكثير من الدلالات .

وقد اهتم ابن مقبل باظهار المراة في لوحاته من قبيل تغزله بجمالها وصفاتها الجسدية ، او من قبيل ذكرها فمن تلك اللوحات ما يفتتح به ابن مقبل قصائده بحيث تكون نسيبا خالصا (١٠). او ان يأتي به ممزوجاً بلوحات ظعنية (١١) اثرنا الاشارة اليها _ ها هنا _ كون الظعن في بعض جوانبه يتعلق بالمراة كما النسيب .

وكانت هناك لوحة واحدة افتتحها ابن مقبل بذكر اماكن الحبيبة (١٢). وهناك لوحات جاء بهامتاخرة في بعض قصائده (١٣).

وتدخل لوحات الافتتاح بالطيف ضمن لوحات المراة في هذا المبحث ايضا،فكان منها ماافتتح به بعض قصائد ديوانه (١٤) ، ومنها ما جاء لوحات متاخرة (١٥) وهي قليلة .

وتبرز في لوحات النسيب لابن مقبل صور كثيرة لجمال المراة متخذاً قرائنها من الطبيعة حوله ، ولا سيما من دائرة الحيوان،وتعد الظبية من ابرز الحيوانات التي يظهرها في تلك الصور لما يرى فيها من معاني الحسن الباهر والجمال الراقي الشئ الكثير ، واول ما يجذبه منها عيونها الحوراء الجميلة ذات النظرة الرشيقة .

فتلوح لنا في صورة يرسمها ابن مقبل لجمال عيون حبيبته وسوادها مقرناً بينه وبين سواد عيون الغزلان، حتى دعاه ليقول كانها اقترضت ذلك السواد من عيون تلك الغزلان :

كان أعين غزلانٍ ، اذا اكتحلَتْ بالأثمدِ الجون، قد قرضْنَها حينا(١٦)

وتلفت ابن مقبل من تلك الغزلان حركة رشيقة لها ، في الوقت الذي تظهر حالة من حالاتها النفسية المضطربة عند شعورها بقرب مصدر الخوف منها، فيقول في صفة الحبيبة:

تَراءَتْ لنا يومَ النَّسَار بِفاحمٍ وسُنَّةِ ريمٍ خافَ سمعاً فأوفدا(١٧)

فهي صورة تجلي اثار الخوف عند ذلك الحيوان عند سماعه صوت خطر قريب منه فيرفع راسه وينصب اذنيه يتسمع وهو في اشد حالات الاضطراب. فيتخذ ابن مقبل من حركة تلك الظبية المذعورة وجها لابراز جمال المراة ليزيدها حسنا بحركة تلك الظبية.

ومن صورالجمال التي يلتقطها ابن مقبل للمراة ان يراها ذات عنق طويل فيزيدها جمالا، وذلك ما يظهره لنا خياله في صورة ايحائية عندما يرى ما تعلق من اقراط في اذنيها انها تكاد تسقط في مهوى سحيق ، فيقول:

من الهيفِ مَيْدانٌ تَرَى نَطَفَاتِها بِمَهْلكةٍ أَخْرَاصُهُنَّ تَذَبْذَبُ(١٨)

اي انها لطول عنقها لو زلق القرط من اذنها لانكسر قبل وصوله الى صدرها لما بين اذنها من طول مسافة .

ومن صور الجمال الاخرى للظباء صورتها وهي منفردة مع ابنها عن باقي الظباء فيزيدها ذلك حسناً وبياناً عن قريناتها من قطيع الغزلان (١٩)

يلتقط الشاعر هذه الصورة ليرى فيها جمال حبيبته .

ومن حيوانات الصحراء الاخرى التي اجتذبت الشعراء المهاة او البقرة الوحشية بما لديها من عيون حوراء _ كالظباء_ وخدود بيضاء وبذلك نلمس وجها من اوجه الجمال بينهما ، فضلا عن ابراز ناحية الامومة ولاسيما حين يرونها تزجي امامها ولدها الصغير ترعاه وتقوم بحمايته من وحش الصحراء .

وقد استاثرت صورة المهاة ابن مقبل في اكثر من موضع من الديوان(٢٠)

فراح يرسم من صفات جمالها صفات اجمل للمراة التي يحب او التي كان يحبها بعد ان فرق بينهما الاسلام، كان لحالته النفسية اثرها البالغ في توجيه لوحاته واستشراف معاني المرارة التي ظل يعيشها اثر فراق الدهماء. وأول ما نريد الوقوف عليه من صوره تلك ، قوله:

تَرْنُو بِعَيْنَيْ مهاةِ الرَّملِ أَفْرَدَها رَخْصٌ ظُلُوفَتُهُ إلاّ القنَاَ ضَرَعُ

ابْنُ غَدَاتَيْنِ مَوْشيٌّ أَكارِعُهُ لَمَّا تُشَدَّدْ لَهُ الأَرْسَاغُ والزَّمَعُ(٢١)

ويمضي في بيان ضعف ذلك الصغير متوسعا في رسم صورته، الى ان يقول:

يمشي الى جنبِها حالاً وتَزْجُلهُ ثَمَّتْ يُخالِفُها طُوراً فيضطجعُ

ظَلَّتْ بأكثبةٍ الحْرَّيْنِ تَرقُبُه تَخشى عليهِ إذا ما استأخرَ السَّبُعُ(٢٢)

فيرى ابن مقبل اضطرابا في عيني حبيبته وقد شدت رحالها مثل اضطراب تلك المهاة التي تتابع ابنها ولا تدعه يفارقها شاخصة بصرها نحوه لئلا تغفل عنه فيضيع ابنها ويكون اكلا للسباع .

ويظهر ابن مقبل صورة تلك البقرة الوحشية في لوحة اخرى (٢٣)

ياتي بها بعد لوحة نسيب طويلة جدا يفتتح بها احدى قصائده وقد زاوج بينها وبين الظعن (٢٤)،

اما صورة ثور الوحش فيجي بها ابن مقبل عند تصويره مهاة ترعاه وتبذل له ودها وتؤالفه في حياته ، وهو يؤدي ما عليه حيالها في بحثه عن بيت يضمه ويوفر له سبل الحياة من الزاد والطعام _ وان كان قليلاً _ ،

فيقول بعد لوحة افتتاح بطيف :

كأنّ السُّرى أهَدتْ لنا بعدما وَنى من اللّيلِ سُمَّارُ الدَّجاجِ فَنَوَّما

ربيبةَ حُرَّ دافَعتْ في حُقوفةٍ رَخَاخَ الثَّرى والأَقْحُوانَ المُدَيَّمَا

تُراعي شَبُوباً في المرادِ كَأَنَّهُ سُهَيْلٌ بَدَا في عارضٍ مِنْ يَلَمْلَمَا

الى ان يقول:

يَظَلُّ إلى أَرطَاةِ حِقْفٍ يُثيرُهَا يُكابدُ عَنْها تُرْبَهَا أَنْ يُهَدَّمَا

واخيرا يقول:

توَرَّعُهُ الأَهْوالُ مِنْ دُون هَمَّهِ كما وَرَّعَ الرَّاعي الفَنيقَ المُسَدَّمَا(٢٥)

حقا انها لوحة تظهر معناة ابن مقبل النفسية والحياتية باجلى صورها بعد ان فارق الدهماء، وما الثور الذي بات الى شجرة الارطاة الاابن مقبل نفسه،باحثا عن بيت يأويه بعد ان ضاع وتهدم لانه كان يبحث في الرمال وفي احد احقاف الصحراء التي لا يقوم عليها بناء ، وان كل ما بناه كان احلاماً ضائعة . وثمة ما نريد بيانه بهذا الصدد عن صورة الثور في لوحات ابن مقبل ، انه لم يستشرف معاناة ذلك الثور وايراد قصته الاضمن الاطار العام في لوحات المرأة، ولم يستثمر حجم تلك المعانات في لوحات الرحلة على مشبهات الناقة الا في موضوع واحد منها من قبيل قرن صفات سرعة الثور والجدة البيضاء التي تلوح على ظهره ، بسرعة ناقتة وجمالها(٢٦)، وهو تفرد يبرزه عن بقية الشعراء الذين لم ياتو بصورة الثور الا في لوحات الناقة ومشبهاتها(٢٧) او في معالجات اخرى (٢٨).

ويمكن لنا ان نعلل استعمال ابن مقبل صورة الثور على غير عادة الشعراء في معالجاتهم الشعرية ، بانه اثر الصورة الافضل للثور بان يشبهه بنفسه وحالته النفسية ومعاناته من الحياة. لكننا لا نلمح صورة لكلاب صياد يفيق على صوت نباحها ذلك الثور كي يخوض معها معركة الحياة ، اما بالغلبة والنصر و اما الهزيمة والممات. وهذا يعزى الى كون ابن مقبل لم يكن شاعر مديح ولا شاعر رثاء ليختتم قصة ثوره بتلك النهاية التي يختتمها الشعراء الاخرون ، بالانتصار ان كان مديحا وبموت الثور ان كان رثاء- في الغالب –

ويظل اثر الحالة النفسية للشاعر في توجيه مشاهده ولوحاته الفنية مقتنصا من عالم الحيوان حوله صورا يستطيع ان يجد فيها متنفسا لحالته ومعاناته فيقرن بين طبائع تلك الحيوانات وبين ما يريد ان ينقله منها الى شعره.

فنراه يستاثر بصور اخرى من ذلك العالم، فتلمح لـه صـورة الظليم- ذكر النعام- وهو يحتضن بيضـه، فيقول:

كبيضة أُدْحيَّ يوُحْوحُ فَوقَها هَجِفَّانِ مُرتَاعا الضُّحى وَحَدانِ

احسَّا حَسيساً مِن سباعٍ وطائفٍ فلا وَخْدَ الأْ دونَ ما يَخدِانِ

يكادانِ بين الدَّوْنَكينِ وأَلوْةٍ وذاتِ القَتَادِ السُّمْرِ يَنْسَلِخَانِ(٢٩)

ويرى ابن مقبل ان الظليم يخشى على بيضه خطر السباع او اي كائن اخر، فهو فضلا عن توفير الحماية لبيضه فانه يوليه رعايته واحتضانه ويخشى عليه حتى الندى اخر الليل فيضل يحتضنه حتى الصباح وارتفاع عمود الشمس وتوفير الدفء والحرارة التي يحتاج اليها ذلك البيض ، فيقول في صورة اخرى:

يَخْشَى الندَّى فيُولِّيها مقاتِلَهُ حتْى يُوافيَ قَرْنَ الشمَّسِ تَرْجِيلُ(٣٠)

ان اختيار بيضة الظليم لتشبيه المراة بها يقصد به الى ناحية جمالية من حيث الملامسة والبياض ، والى ناحية اجتماعية ذلك ان المراة توجب على الرجل حمايتها والمحافظة عليها ورعايتها ولذا فقد ارتبطت بمعاني الشرف والقيم الاجتماعية، فضلا عن ان البيضة يكمن فيها سر من اسرار الحياة لانها تمثل كائنا حيا من الكائنات ، وكذا المرأة اذ لها علاقة وثقى بهذا السر لانها مصدر مهم من مصادره التي ينبثق منها .

ويمضي ابن مقبل في تتبع صور جمال المراة اذ يجده في وشاحها الرقيق الذي زاد جسدها حسناً وجذبا لاعين الناظرين المتوسمين ذلك االجمال الذي يبرزه من صفات المرأة الجسدية في لوحة ، يقول فيها :

لم يُبقِ من كبدي شيئاً أعيشُ به طولُ الصبابةِ والبيضُ الهراكيلُ

من كلَّ بَدَّاءَ من البُرْدَيْنِ يَشْغَلُها عن حاجةِ الحيّ عُلامٌ وتَحجيلُ

ممن يجولُ وشاحاها إذا انصرفَتْ ولا تجولُ بساقَيْها الخلاخيلُ (٣١)

وهي صفات مادية لم يبتعد عما قاله الشعراء وفضلا عن تاكيده على حسن قوام المرأة .

ويؤكد ابن مقبل صفة البياض في اماكن أخرى (٣٢) ، وهي رمز دليل النقاء وصفاء الحياة ونعمة العيش التي تبدو في امتلاء أوصال المرأة ، لذا فهي تهتز اذا ما مشت مثل اهتزاز نخلة اذا هزتها ريح :

يهززْنَ للمشي أوصالاً مُنَعَّمةً هَزَّ الجَنوبِ ضحىً عيدانَ يَبرِينا (٣٣)

ومما يظهره ابن مقبل من حياة نعيم المرأة تطيبها الكثير الذي يفوح شذاه وقد أظهره في أكثر من صورة .

من ذلك قوله :

خودٌ كأنّ فراشها وَضِعَتْ به أضغاثُ ريحانٍ غَداةَ شَمالِ (٣٤)

فهي صورة توحي لنا بامتلاء فراشها بعطر الرياحين ، مع بيان الزمن ، اذ تنتشر تلك الرائحة ويمتلئ المكان بها عند هبوب نسيم الشمال ذات البرودة المحببة للنفس فتثير الراحة والطمأنينة .

وهي صورة عطرية يحرص اكثر من شاعر (٣٥) على ابرازها في أردية المرأة وأكمامها لما يظهره من شأن كريم لتلك المرأة ومكانتها التي يحرص العربي على ابرازها من كل وجه وفي كل مناسبة قول

وقد اظهر ابن مقبل شرف تلك المرأة ومكانتها في عطرها الذي يظهر شخصيتها ، فيقول :

أناةٌ كأنَّ المِسْكَ دونَ شِعارِها يُبكِّلُهُ بالعَنْبَرِ الوَرْدِ مُقْطِبُ

كأنّ خزامى عالجٍ طرقت بها شمالٌ سيسُ المَسُ ، بَلْ هِيَ أطْيَبُ

فَباكَرهَا حِينَ اسْتعانَتْ حُقُوفُهَا بِشَهْبَاءَ ، سَاريها من القُرَّأَنْكَبُ (٣٦)

فهي امراة فيها فتور عن القيام وهي امراة رزين لا تفحش ، وفي جسمها رائحة كالمسك المخلوط بالعنبر الاحمر ، يراها الشاعر افضل بكثير من رائحة ورد الخزامى التي اتت بها ليلاً رياح شمال باردة .

ولم نعدم صور نعيم المراة عند ابن مقبل فنجده يشبهها بالدمى التي تحمل الى جانب الصفات الجمالية ، دلالات دينية في ذهن العربي لأنها تكون في اماكن خاصة للعبادة ومحاريب الصلاة (٣٧) و كما في مثل قوله :

ومأتمٍ كالدمَّى حورٍ مُنَعمَّةٍ لم تبأسِ العيشَ أبكاراً ولا عونا (٣٨)

ومما يزيد في حسن جمال المراة شعرها الفاحم الشديد السواد وقد استحسنه ابن مقبل وجاء بصورة اكثر حسناً :

وأسحَمَ مَجَاجَ الدَّهانِ ، كأنّهُ عناقيدُ من كَرْمٍ دَنَا فَتَهصَّرا (٣٩)

فيبرز صورة بكثافة شعرها عندما رآه مثل عناقيد محملة بالاعناب فهي تتدلى من ثقل ماتحمله ، وكذلك كانت ضفائر تلك المرأة ثقيلة متدلية على جانبي صدرها . وكان للزينة التي تحرص المرأة على التزين بها ، ولا سيما وضع القلائد المتوهجة على نحرها ،موضع اهتمام ابن مقبل حين يصف قلادتها كانها قد وضعت على صدرها جمراً لتوقد زينتها وقد لمعت في عقدها الدرر التي تفصل بين الشذور كانها نجوم ليل :

كأنّ بين تَراقيها ولبَّتِها جمراً بهِ من نُجوم اللّيلِ تفصيلُ (٤٠)

وما ينفك ابن مقبل في تمثل صفات حبيبته وهو يحدق بفنه في جمال وجهها ، فيجذبه ثغرها بعد ان جذبته عيونها الحوراء ولحظها القاتل كسيف (٤١) . فيرسمه بفرشاة غمسها في عسل قبل ان يرسم ذلك الثغر الذي رضابه العسل الممزوج بأريج الزهر المبلل بالندى ، فيقول :

كأنّ على فيها جنى ريقِ نحلةٍ يُباكرهُ سارٍ من الثلجِ أملحُ (٤٢)

على اننا نرى ثغر الحبيبة لدى شعراء اخرين (٤٣) يروى بماء المطر لا ان يكون هو مصدر ذلك المطر ، لكن ابن مقبل يمنحه صفة الخصب والنماء على خلاف ما عهده الشعراء ، فيتفرد في وصفه قائلاً :

كأن ضحكتها يوماً إذا ابتسمتْ برقٌ سحائبُهُ غُرٌ زَهاليلُ(٤٤)

وينعم ابن مقبل زيادة في حلاوة ثغر الحبيبة عندما يتخذ من الزمان عاملا اخر لابراز حلاوته ، فيصفه بالعذوبة من أخر الليل وقد حان الكرى ومضى منه وقت ، أي ان ريق حبيبته يبقى كما هو ، وهي صفة جمالية عند الشعراء وصفوا بها حبيباتهم فيقول :

وكأنها اغتبقتْ قريحَ سَحَابةٍ بِعَرىً تُصَفِّقُهُ الرِّياحُ زُلالِ (٤٥)

وفضلاً عن كل مزية من مزايا الجمال التي وسم بها ثغرها ، يراها ابن مقبل محافظة على نظافة فمها وتجميله ، فيقول :

وأشنبَ تَجلُوهُ بعُودِ اراكةٍ ورَخْصاً عَلَثْهُ بالخِضابِ مُسيَّرا(٤٦)

ويلقي ابن مقبل صفات جمالية اخرى على حبيبته فيرى طلعتها عليه كطلعة الشمس بعد احتجاب بضباب :

تبدو لغرتِنا ، ويَخفَى شَخْصُها كطلُوعِ قَرْنِ الشّمسِ بعد ضبابِ (٤٧)

ويراها تضيء دجى الليل بابتسامتها :

إذا ابتسمتْ في مُظِلم الليلِ فَرَّجتْ دُجى الليلِ عن عذبٍ أغرَّ مُوشَّمِ (٤٨)

ويمكن ان نشير الى لوحة متميزة في نسيب ابن مقبل لكونها نسيباً يرتبط بأماكن الحبيبة التي يحن اليها والى منازلها التي يبصر ضوء نيرانها ، وهي نيران قد اقترنت بذكر الحبيبة ، مما اضفى عليها جمالاً وتالفاً حتى لتغدو النار والحبيبة حالة واحدة من التداخل ، فيثير الحب والشوق في قلب العاشق وهو بتطلع الى وجه الحبيبة وقد أضاءته تلك النيران .

ياصاحبيَّ انظراني لا عدِمْتُكما هَلْ تُؤْنِسانِ بذي رَيْمَانَ مِنْ نارِ

نَارَ الأَحبَّةِ شطَّتْ بَعْدَما اقْتَربَتْ هَيْهَاتَ أَهْلُ الصَّفَا من دَيْر دينارِ

ناراً تؤرَّثُ احياناً إذا خَمَدَتْ بَعْدَ الهُدُوَّ بجزْلٍ غَيْرِ خَوَّارِ (٤٩)

ثم يعود لمخاطبة صاحبيه وهما في الأرجح رفيقا سفره ، يدعوهما لابصار تلك النيران معه وانه معينهما على الابصار ان لم يستطيعاه ، فيقول :

ياصاحبيَّ انظرا إنّي مُعينكما بمُقلةٍ لم يَخْنَهْا عائِرٌ ساري(٥٠)

ولكن كيف يبصر المرء ناراً ان كانت الدار قد خلت ممن يوقدها ؟

ومامن جواب لذلك الا ان نقول انه الارق الدائم الذي يلازم الشاعر بسبب ابتعاد الدهماء عنه . بل نجده هو نفسه يؤكد ذلك في موضع اخر :

وكيف ولا نارٌ لدهماء أُوقِدَتْ قريباً ولا كلبٌ لدهماءَ نابِحُ (٥١)

فما مناجاته اذن لصاحبيه لا من قبيل استئناسه بتوهم ابصاره ناراً على الرغم من ابتعاد المكان ، فكانه يبصر الحبيبة –ان كان قد ابصر نارها- وما ذلك الا تحبب في ذكرها.

وليس ذلك فحسب ، فقد ذكر ابن مقبل ديار- ليلى- كما يسميها في مواضع أخرى قد شاقه الحنين اليها بعد رحيل أهلها حتى اصبحت سكناً للجن(٥٢)

وذلك مما يؤكد اهمية المكان لدى العربي وأثره في نفسه ، ويظل الحنين الى الديار والتمسك بها وأهلها شكلاً يميز القصيدة العربية .

وتتميز لوحات اخرى عند ابن مقبل، وهي لوحات الطيف التي يرسم فيها خيال الحبيبة الزائر له وقد افترش أرض الفلاة مع صحب له فيعجب من اهتدائها اليه على الرغم من كل الفلوات الفاصلة بينهما ، بل يراه امرا صعباً على امراة مثلها تعيش حياة نعيم (٥٣) فكيف تصل اليه بمفردها عبر الطرقات والشعاب الموحشة المجهولة :

تخطّت إلينا الدورَ والسوقَ كلَّها ومَن كان فيها من فصيحٍ وأعجمها (٥٤)

او في مثل قوله:

زارَ الخيالُ لدهماء الركابَ وقد نامَ الخليُّ ببطنِ القاعِ من أسُنِ

مطواً طليحاً تَسجَّى غيرَ مفترشٍ الاّ جناجنَ ألقاها على شَزَنِ

ما أنِسَتْ في فضاءِالأرضِ أوطَرقتْ غيري وغيرَ سوادِ الرَّحلِ من سَكَنِ(٥٥)

وبهذا الصدد يمكن القول ان لوحة الطيف لم تكن ذات ملامح فنية واضحة او كانت تمثل اتجاهاً فنيا بارزاً في الشعر الجاهلي في مراحله المبكرة ، انما كانت مجرد استحضار غامض لمتع الماضي لان " النسيب كان يؤدي مهمته في مواطن الحرمان والذكرى "(٥٦) حين يستبد الحرمان بالشاعر ويؤلمه الفراق .

ولكون ابن مقبل من شعراء المرحلة المتأخرة فأنه يمنح لوحاته اشراقة الفن الشعري بما تراكم لديه من الخبرة ، ومن أفاق خياله الذي توسع فيه توسعاً نابعاً من عوالم هي ثمرة افكاره وتخيلاته . وقد منحه الزمن المتأخر فرصة الانطلاق في تطوير الانموذج الى ما يوازي مرحلة النضج الفني الذي وصلت اليه القصيدة الجاهلية عموماً ، وتعد في الوقت نفسه ثمرة الابداع الفني في الشعر العربي قبل الاسلام (٥٧) .

ويتجلى ابداعه ذلك في لوحته اذ يقول :

طَرقْتكَ زَينَبُ بعدما طالَ الكرى دونَ المدينة غيرَ ذي أصحابِ

الاّ عِلافيَّاً وسَيفاً مُلْطَفاً وضِبِرَّةُ وجناءَ ذاتَ هِبابِ (٥٨)

فأول ما يهتم به ان يحدد زمان ذلك الطيف بعد استغراقه في النوم الطويل ، وقد زاره وما كان احد معه الا رحله وسيفه وناقته التي يسترسل ويستغرق في وصفها بعد ذلك .

ويمضي ابن مقبل في لوحة طيفه ، فيحدد زمناً لزيارة ذلك الطيف وقد شاب وانتهى عهد الشباب ، فيقول:

طرقت وقد شحط الفؤاد عن الصبا واتى المشيب فحال دون شبابي (٥٩)

ولايكتفي بذلك التحديد اذ يحدد المكان ايضاً الذي طرقه فيه خيال حبيبته ، فيقول:

طرقتْ بِريّا روضةٍ وَسْمِيَّةٍ غرِد بِذابِلِها غِناءُ ذُبابِ

بِقَرارةٍ مُتَراكِبٍ خَطْميُّها والمِسْكُ خَالطها ذكيٌّ مَلابِ (٦٠)

فهو طيف يشيع فيه ابن مقبل اذكى عطور الحياة والربيع والخضرة .

مما تقدم من قول في هذا البحث ، وجدنا استغراقاً واضحاً لحضور المرأة في

قلب الشاعر وعقله يظهره فنه وابداعه الذي اشاعه في لوحاته مسبغاً عليها كل صفة حسن او جمال يراها في الطبيعة من حوله .

لذا لم نجد صفات مادية للمراة كتلك التي امتلأت بها دواوين بعض شعراء المرحلة المبكرة من العصر الجاهلي ، متمثلاً في عدم ابراز صفاتها في لوحاته الغزلية بل كان يرسم ملامح عامة من دون ان يغرق في الوصف او التمثيل ، لانه شغل برحيل المرأة الحبيبة وبحدثه العظيم وأثره البالغ في نفسه وعقله ، فظل هائم القلب يتتبع مسير الظعن وطرقات الصحراء التي يجوبها واماكن قيلولة القوم واماكن التعريس للمبيت ليلاً ، ونزولهم عند منابع المياه والابار وليس ذلك فحسب بل سنجده في رحلاته الليلية والنهارية يجد الرحلة الى الدهماء على ناقة تسرع في خطوها وسيرها . وقد كشفت لوحاته قليلاً عن صفات جمال المرأة فهي من ظباء ترج ولها جيد مغزل وتثني عنقاً كغزال وأنها امرأة منعمة متطيبة بأذكى العطور فضلا عن ارومة الاصل .

وفضلا عن ذلك ، فأن ابن مقبل كان هادئاً في نسيبه ولم يكن هائماً على طريقة شعراء العشق مكتوياً بنار الحب ولظاها ، وحبه ، أو لوحاته كانت اقرب الى استرجاعات الذكرى وأيام الالفة ، من دون ان يدعنا نحزن لفراق او نتألم لهجر ، على الرغم من كثرة ذكره الحبيبة وتسخير فنه في حبها ولها .

المصادر والهوامش

= القران الكريم

١- تطور الغزل بين الجاهلية والاسلام ، د. شكري فيصل ، دار العلم للملايين ، بيروت ، د.ت ، ١٧٨ .

٢- ينظر الاصابة في تمييز الصحابة ، ابن حجر العسقلاني ، طبعة القاهرة ،١٣٢٨ هـ ،١٩٥/١ .

٣- طبقات فحول الشعراء ، ابن سلام الجمحي ، تحقيق محمود محمد شاكر ،مطبعة المدني ، القاهرة ،١٩٧٧ ،١٥٠/١.

٤- المحبر ، ابن حبيب ، طبعة حيدر اباد الدكن ، الهند ، ١٩٤٢ ، ٣٢٥ – ٣٢٦ .

٥- سورة النساء الاية ٢٣ .

٦- ديوان ابن مقبل ، تميم بن ابي ، تحقيق عزة حسن ، وزارة الثقافة ،دمشق ، ١٩٦٢ ، ١٣٢ .

٧- المصدر السابق ١٤١ .

٨- ينظر المصدر السابق (المقدمة)١٢ -١٣ .

٩- طبقات فحول الشعراء :١٥٠/١ .

١٠- ينظر ديوانه ٤٨-٥٠، ٢٦٦ – ٢٧٠.

١١- ينظر ديوانه ٦١ ،١٦٧-١٧١، ١٨٠-١٨٤، ٢٢٥-٢٢٨ .

١٢- ينظر ديوانه ١١٣ -١١٤ .

١٣- ينظر ديوانه ٤٢-٤٤ ، ٦٥-٦٦ ، ١٤٢- ١٤٤ ، ١٧١- ١٧٤ .

١٤- ينظر ديوانه ١-٣ ، ٢٨٣ – ٢٨٥ ، ٣١٥ – ٣١٩ .

١٥- ينظر ديوانه ٢٥٩ ، ٣٠٨ – ٣٠٩.

١٦- ديوانه ٣٢٦ .

١٧- ديوانه ٦٥ ، بفاحم : اي شعرها اسود . سنة ريم :وجهه . أوفد :رفع رأسه ونصب أذنيه يستمع .

١٨- ديوانه ١٨ ، نطفاتها : اقراطها . أخراصهن : الحلقات الصغيرة فيها .

١٩- ينظر الطبيعة في الشعر الجاهلي ، د. نوري حمودي القيسي ، طبعة دار الارشاد ، بيروت ، ١٩٧٠ ، ١٤٣ .

٢٠- ينظر ديوانه ٤٩ ، ١٧٢- ١٤٧ ، ١٨٣ -١٨٤ ، ٢١٥ ، ٢٨٤ .

٢١- ديوانه ١٧٢ ، رخص زلوفته :لين القوائم . القنا : فقار الظهر . الظرع : الضعيف . موشي أكارعه : فيها بياض . الزمع : نتوءات في ساقه .

٢٢- ديوانه ١٧٤ .

٢٣- ينظر ديوانه ٣٨٤ – ٣٨٩ .

٢٤-ينظر ديوانه ٣٧٤ – ٣٨٤ .

٢٥- ديوانه ٢٨٤ – ٢٨٦ ، سمار الدجاج : الديكة . ربيبة حر : البقرة الوجشية . الحقوف : ماعوج واستطال من الرمال . الرخاخ : اللين . الشبوب : الثور المسن . العارض : الجبل الناتئ . المديم : الذي اصابته الديمة . تورعه : تمنعه . الفنيق : الفحل .

٢٦- ينظر ديوانه ٢١٣ .

٢٧- ينظر دواوين الشعراء : أمرئ القيس ١٠١ ، ١٩٠ ،بشر بن ابي خازم ٥١ ،٥٥ ، أوس بن حجر ٢، ٤٢ .

٢٨- ينظر ديوانا : عبدة بن الطبيب ٦٥ – ٧١ ، سويد بن ابي كاهل ٢٩ – ٣٠ .

٢٩- ديوانه ٣٣٧ – ٣٣٨ ، الادحى : مكان وضع البيض لأنه يدحيها برجليه . يوحوح : يصوت . الهجفان : الهجف من النعام الثقيل الكثير الريش . الوخد : ضرب من السير السريع . الدونكان : واديان . القتاد : شجرله شوك صلب مدبب .

٣٠- ديوانه ٣٨٤ ، مقاتله : صدره وبطنه . ترجيل : أرتفاع الشمس .

٣١- ديوانه ٣٧٩ ، الهراكيل : اي نساء أوراكهن عراض وضخام . البداء : الواسعة الصدر . العلام : الحناء . التحجيل : ان تكون في الستور .

٣٢- ينظر ديوانه ١٤٣ ، ١٧١ ، ٢٠٥ ، ٢٢٦ .

٣٣- ديوانه ٣٢٧ .

٣٤- ديوانه ٢٦٠ .

٣٥- ينظر دواوين الشعراء : قيس بن الخطيم ١٣٥ ، الاعشى ٥٥ ، الشماخ ٧٥ .

٣٦- ديوانه ١٩ .

٣٧- ينظر الصورة في الشعر العربي حتى أواخر القرن الثاني الهجري ، د. علي البطل ، دار الاندلس للطباعة والنشر ، ١٩٨٠ ، ٦٤ – ٦٦ ، ٧٣ .

٣٨- ديوانه ٣٢٥ .

٣٩- ديوانه ١٤٣ ، تهصرا : تهدل لثقله بالثمر .

٤٠- ديوانه ٣٨١ .

٤١- ينظر ديوانه ٣٢٨ .

٤٢- ديوانه ٥٠ .

٤٣- ينظر دواوين الشعراء : أمرئ القيس ١٥٨ ، ٢٠٤ ، طرفة بن العبد ٩ ، بشر بن ابي خازم ٤٣ ،٦٣، ١٤٣ .

٤٤- ديوانه ٣٨٢ .

٤٥- ديوانه ٢٦٠ .

٤٦- ديوانه ١٤٣ .

٤٧- ديوانه ٣ ، الغرة : الحداثة .

٤٨- ديوانه ٢٨١ .

٤٩- ديوانه ١١٣ .

٥٠- ديوانه ١١٣.

٥١- ديوانه ٤٣ .

٥٢- ينظر ديوانه ٢٩٥ ،٣١٨ .

٥٣- ينظر مقدمة القصيدة العربية في الشعر الجاهلي ، د. حسين عطوان ، دار المعارف بمصر ، ١٩٧٠ ، ١٠٧ ، ١٦٥ – ١٦٨.

٥٤- ديوانه ٢٨٣ .

٥٥- ديوانه ٣٠٨ – ٣٠٩ ، أوسن : واد باليمن . المطو : الصاحب والصديق وأراد نفسه . الطليح : الذي أعياه السفر . الجناجن : اضلاع الصدر . الشزن : الغليظ من الارض .

٥٦- شعر أوس بن حجر ورواته الجاهليين ، د. محمود عبد الله الجادر ، دار الرسالة للطباعة ، بغداد ١٩٧٩، ٢٥٨ .

٥٧- ينظر التطور والتجديد في القصيدة العربية قبل الاسلام ، أطروحة دكتوراه ، فاضل بنيان ، كلية الاداب جامعة بغداد ، ١٩٩٢ ، ١٠١.

٥٨- ديوانه ١، العلافي : الرجل العظيم . ملطفاً : الملصق بالجنب . الضبرة : الناقة الوثابة .

٥٩- ديوانه ١ ، شحط : بعد .

٦٠- ديوانه ٢ ، الملاب : نوع من الطيب . الخطمي : نبات .